تجليات الذات المتكلمة في مناظرات القرآن الكريم

وهيبة خبيل*

مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر

omhadjer15@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/10/27 **تاريخ القبول: 2024/01/21**

ملخص:

تقوم الذّوات في المناظرات على اعتبار أنّها خطاب شفهيّ إلى عمليّة إلقاء القول بطريقة تداوليّة بين العارض والمعترض، فتعدّد أصوات الذّوات مفصحة عن كياناتها وأدوارها داخل النصّ، وقد عالجت التّداوليّة هذه الظاهرة منذ ظهور أعمال ديكرو وقبله باختين فيما يُعرف بالحواريّة.

إنّ هذه الظّاهرة التي يختصّ بها التّفاعل القوليّ هي التي أوحت لنا بمعالجة قضيّة تعدّد أصوات الذّوات في بعض النّماذج من مناظرات القرآن الكريم (مناظرات نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام) على اعتبار أنّ التّفاعل القوليّ في أكمل صوره وأبلغ مقاصده موجود في القرآن الكريم الذي يعدّ نموذجا فريد للمعنى والمبنى تحتذي به البشريّة، مستعينين في دراستنا بأطروحات "التّداوليّة المدمجة" التي اهتمّت بالمتكلّم وبخاصيّة "التعدد " الكامنة في الخطاب التّفاعلي بصورة ظاهرة أو مضمرة، فتنشطر إلى ذات إنتاج، وذات تقبّل من جهة، وذات محاجة وذات مساجلة من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: المناظرات القرآنيّة -تعدّد أصوات الذّوات- الحجاج-السّجال.

*المؤلف المرسل باللغة اللاتينية: Ouahiba Khabil

Manifestations of the Speaking Self in the Debates of the Holy Qur'an

Abstract:

The topics of the debates are based on the consideration that they are an oral discourse in the process of pronouncing words in a deliberative manner between the presenter and the objector, so that the plurality of the subject voices expresses their entities and roles in the text.

This phenomenon, specific to verbal interaction, is what inspired us to address the issue of the polyphony of the subject voices in some models of the debates of the Holy Qur'an (the debates of Noah, Abraham and Moses, peace be upon them), given that verbal interaction in its most complete forms and its most eloquent objectives is found in the Holy Qur'an, which is a unique model in the meaning and construction that humanity refers to. In our study, we have exploited the "integrated deliberative" theses that focus on the speaker and the characteristic of "plurality" inherent in interactive discourse in an apparent or implicit manner, so that it is divided into self-production and receptivity on the one hand, and argumentation and controversy on the other hand.

Keywords: Quranic debates- polyphony of speaking self- Argumentation- Controversy.

Manifestations du soi parlant dans les débats du Saint Coran

Résumé :

Les sujets des débats sont basés sur la considération qu'ils sont un discours oral dans le processus de prononciation des mots de manière délibérative entre le présentateur et l'objecteur, de sorte que la pluralité des voix des sujets exprime leurs entités et leurs rôles dans le texte.

Ce phénomène, propre à l'interaction verbale, est ce qui nous a inspiré à aborder la question de la polyphonie des voix des sujets dans certains modèles des débats du Saint Coran (les débats de Noé, d'Abraham et de Moïse, Que la paix soit sur eux), étant donné que l'interaction verbale dans ses formes les plus complètes et ses objectifs les plus éloquents se trouve dans le Saint Coran, qui est un modèle unique dans le sens et la construction dont l'humanité se réfère. Dans le cadre de notre étude, nous avons exploité les thèses «délibératives intégrées» qui se concentrent sur le locuteur et la caractéristique de «pluralité» inhérente au discours interactif de manière apparente ou implicite, de sorte qu'il soit divisé en autoproduction et réceptivité d'une part, et argumentation et polémique d'autre part.

Mots clés : Débats coraniques- soi parlant- Argumentation- polémique.

مقدمة

يتبادل المتناظران في المناظرة أدوارهما، بين متكلّم ومتلق للخطاب، فيتقارعان الحجج وتحاول الذّات المتكلّمة في خضّم هذه المنافسة أن ترسم لنفسها صورة مقنعة من خلال الخطاب الذي تقدمه ساعيّة كلّ السّعي لتحقيق غايتها ومقاصدها ضمن السّياق الذي تتواجد فيه، ويعدّ السّياق والمقصد من أهمّ مباحث التداوليّة المعرفيّة في مقاربتها للخطاب، وذلك من خلال ربط السّياق "بنظريّة الملاءمة" التي طرحها الباحثان دان سبربر (Dan Sperber) وديدري ويلسون (Deirdre Wilson) التي تهدف إلى جعل المعلومة ملائمة لسياق القول وفق المحيط المعرفي المشترك بين المتخاطبين، ووفق الفرضيات البارزة والمعروضة للتّبادل(التّناظر)، ويكون المسعى إمّا حجاجيا هادئا تعمل فيه لإظهار الحق وجعل الطرف الآخر يسلّم به ويذعن له، وإمّا يكون سجاليّا قائما على التّصادم بين الذّوات التي تناور للإيقاع بالخصم، كما تهدف ذوات الرسل القائمة بالمناظرات إلى تبليغ الرسالة الإلهيّة بعد تعرّفهم المُحكم على الوضع السّائد في أقوامهم، كما تعمل الذّوات المتلقيّة على محاولة تغيير المقاصد التي أرادت ذوات الرسل تبليغها ودفع أقوامهم إلى مقاصد مغايرة.

إنّ مهمّة التّمثيل القوليّ تكون من نصيب المتكلّم لا محالة، وعليه انصبّ اهتمام نظريّة "تعدّد الأصوات" على "المتكلّم" ونظر إليه الباحثان باختين وديكرو نظرة مغايرة لما كان عليه سابقا، مفادُها أنّ المتكلّم في الخطاب قد يظهر بصور وأشكال متعدّدة لتنشطر بعدها بتعدّد مواقفها الخطابيّة بين موقف للمتكلّم ثمّ موقف المخاطب، ثمّ إنّها تتعدّد في الخطاب نفسه بتعدّد أفعال الكلام داخل الخطاب، فتنتج الذّات المحاجة والذّات المساجلة المنبثقتين عن الذّات المتكلّمة والتي تُمَثَّل في العالم وتقدّم تصوّرا معرفيّا عن كيانها، فضلا عن اتّخاذها دورا مُحدّدا تتجسّد من خلاله (عارض أو معترض)؛ فما هي الوسائل التي اتّخذها المتناظرون للإفصاح عن ذواتهم؟ وكيف تجلّت هذه الذّوات؟ وهل كرّست فكرة وحدة الذّات المتكلّمة أم تعدّدت أصواتها في المناظرة الواحدة؟

1. المتكلّم المستعمِل والمتكلّم المنشئ للخطاب

تتعدّد الأصوات في الخطابات حسب ديكرو الذي يرفض فرضيّة "وحدة الذّات المتكلّمة l'unicité du sujet parlant"، وقد استمدّ نظريّته في تعدّد الأصوات عن حواريّة باختين التي تُعنى بدراسة النّصوص الأدبيّة، غير أنّه أثار مسألة "التعدّد اللّغوي" من خلال "التكثّر اللّغوي Plurilinguisme" في مستوى اللّغة، وهكذا يصير تعدّد الأصوات امتدادا في اللّسانيّات وبالتّالي لدراسات باختين في النّصوص الأدبيّة، وكلاهما وضعا وحدة الذّات المتكلّمة موضع تساؤل.

ولقد ركّز ديكرو على تفاعل الذّوات في ملفوظ واحد من خلال نظريّة التلفّظ، مصنّفا هذه الذّوات إلى أقسام هي «الكائن التّجريبي وهي الذّات المتكلّمة، الكائن الخطابي وهو القائل، وكائن في الواقع وهي المواقف ووجهات النّظر...والتي تُستنتج اعتمادا على بعض الآليات كنفي الافتراض، الافتراض المسبق، القول المنقول، السّخريّة والسّياق...» (تابتي، 2016-2017، ص07).

والجدير بالذّكر هو أنّ تأثير مفهوم "تعدّد الأصوات" امتدّ إلى العديد من الباحثين الغربيّين خاصّة السكابولين، أو الحلقة السكندنافيّة للبوليفونيّة اللّسانيّة، التي قامت بتطوير المفهوم بإضافة مفاهيم جديدة مطوّرة، وعلى رأسها بحوث هينينق نولك (Nølke) وفلوتان (Fløttum) ولعلّ أهمّها مؤلّف نولك المعنون «القائل كمنشئ للمعنىLocuteur comme constructeur du sens» » (تابتي، 2016-2017، ص 07).

وتقوم الذّات بتبنّي نظام اللّغة ثمّ تقوم بتقويمه، فينتج بذلك بناء الذّات في حدّ ذاتها، فلا يتحقّق وجود الذّات إلّا باللّغة، ولا وجود لهذه اللّغة بمعزل عن هذه الذّات التي تقوم بالتحكّم في صياغة النّظام اللّغوي لخطابها، فتتحكّم هذه الذّات والمجسِّد للمفاهيم المتصوّرة داخِلها بطريقة أو بأخرى في إنشائه، ذلك أنّ هذا النّظام هو الممثّل الفعلي للبنيّة الذّهنيّة الخاصّة بها.

اعتمادا على هذا المفهوم فقد قسّمت المعرفيّة الذّات إلى ذات مستعمِلة وذات منشئة للقول فالذّات المستعمِلة تمتاز بالفرديّة لا بالذّاتيّة، حيث تتعلّق الذّاتيّة بـ «اللّغة نظاما، والظّاهرة الثّانيّة (الفرديّة) متعلّقة باشتغال اللّغة أي باللّغة خطابا» (باديس، 2018، ص 137)؛ فبقدر ما يعمل الفرد على الابتعاد عن كلّ مظاهر الفرديّة يجد نفسه قد اقترب من مظاهر الذّاتيّة وهذا ما تختصّ به الذّات البشريّة التي لا يمكن لخطابها أن يخلو من مظاهر الذّاتيّة ولو كانت متفاوتة في نسبة الوسم بها.

1.1. فرديّة الذّات المُستعمِلة لذوات التّبليغ

تضطلع الذّات الإلهيّة بالفرديّة والوحدانيّة، كما يضطلع خطابها بالتفرّد شكلا ومضمونا وهو الذي يُنقل عن طريق جبريل عليه السّلام إلى رسل الله تعالى وحيا، لتصير بهذا الذّات الإلهيّة مستعمِلة (أو الذات المتكلّمة sujet parlant) تتوجّه إلى مجموعة من الذّوات التي أنشأتها ضمن سياق عام واختارتها لتبلّغ رسالتها لأقوامها، أو للعالم أجمع كما هو الحال مع سيّدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام وهو السّياق الخاص بكلّ رسول.

ولقد استعمل الله سبحانه وتعالى رسله عامّة وأولي العزم منهم لنشر التّوحيد على الأرض والدّعوة إليه عزّ وجلّ، وقد خصّ كلّ رسول بِنِعم كثيرة وصفات مميّزة، نذكر منها ما خصّ به إبراهيم وموسى عليهما السّلام.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾(الأنبياء، الآية 51)فالإخبار عن إيتاء الرشد لإبراهيم عليه السّلام بإسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة لِمِثْل ما قُرّر في قصة موسى وهارون للتّنبيه على تفخيم ذلك الرشد الذي أوتياه.

والرشد: الهدى والرأي الحق، وضده الغي، وتقدّم في قوله تعالى ﴿**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ (سورة البقرة، الآية 256)، وإضافة "الرشد" إلى ضمير إبراهيم من إضافة المصدر إلى مفعوله أي الرشد الذي أرْشِده، وفائدة الإضافة هنا التّنبيه على عظم شأن هذا الرّشد، أي رشدا يليق به...فما ظنّكم برشد أوتيه من الله، وفيه إيماء إلى أنّ إبراهيم كان قد انفرد بالهدى بين قومه(بن عاشور م.، 1984، ص ص 92-93).

وزاده تنويها وتفخيما تذييله بالجملة المعترضة ﴿**وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ أي آتيناه رشدا عظيما على علم منّا بإبراهيم، أي بكونه أهلا لذلك الرّشد(بن عاشور م.، 1984، ص 93) الذي أدرك يقينا حقيقة وجود الله تعالى صانع الكون وما فيه من ظواهر وآيات بيّنات لا تخفى على أيّ كائن، فاختصّ الله تعالى إبراهيم عليه السّلام بهذه الهبة العظيمة فذلك لنقاء سريرته وصفاته العظيمة، كرفضه عبادة التّماثيل كآبائه وحاول تغيير المنكر بالقول والفعل حين حطّم الأصنام، وإدراكه بفطرته أنّ هناك إلها تحقّ له العبادة وهو الذي يدبّر أمور عباده.

ويقول الله تعالى أيضا: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ (سورة الأنعام، الآية 83)، وإضافة الحجّة إلى اسم الجلالة للتّنويه بشأنها وصحّتها...فإيتاء الحجّة إلهامه إيّاها وإلقاء ما يعبّر عنها في نفسه، وهو فضل من الله على إبراهيم إذ نصره على مناظريه، ورفعه الله تعالى على خصومه بالحجّة الدّامغة لأنّه أهل لذلك فكان التّفضيل له تكرمة له على ما امتاز به من فضائل حميدة، وما أدراك ما امتاز به سيّدنا إبراهيم عليه السّلام من صفات وهو الذي اتّخذه الله خليلا.

أمّا سيّدنا موسى عليه السّلام فيلقّب بكليم الله، فقد تلقّى الوحي بشكل مباشر دون واسطة جبريل عليه السّلام، وذهابه إلى فرعون كان بأمر من الله تعالى حين خاطبه قائلا: ﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11)**﴾ **(سورة الشّعراء).**

وقال الله تعالى في موضع آخر : ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**﴾ **(سورة طه)**

والاصطناع: صنع الشّيء باعتناء، واللّام للأجْل، أي لأجل نفسي، والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشّريعة بهيئة من يصطنع شيئا لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان (بن عاشور م.، 1984، ص 223).

﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾ هذه الجملة عطف على جملة ﴿**إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ**﴾، جُعل الأمران إتماما لمِنّة واحدة لأنّ إنجاءه من القتل لا يظهر أثره إلّا إذا أنجاه من الموت بالذّبول لترك الرضاعة، ومن الإهمال المفضي إلى الهلاك أو الوهن إذا وَلِيَ تربيّته من لا يُشفِقُ عليه الشفقة الجبليّة، والتّقدير: وإذ تمشي أختك فتقول هل أدلّكم على من يكفَله لأجل أن تُصنع على عيني (بن عاشور م.، 1984، ص 118) فالصّنع يكون في بداية الأمر، أي رعاية الله تعالى لموسى عليه السّلام في مرحلة الطّفولة.

وينطوي كلّ قول من الأقوال في الخطابات حسب ديكرو على متكلّميْن: الذّات المتكلّمة بمجمل القول والذّات المتكلّمة بالخطاب المحكي، ويمكن أن يكونا متراتبيْن.

فالذّات المتكلّمة بمجمل القول مفادها ردّ هذه الأقوام الكافرة عن الكفر الذي هي فيه والعمل على إقناعهم بجرمهم العظيم، أمّا الذّات المتكلّمة بالخطاب المحكي أو المُعلن فهي ذوات الرسل (نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام) الذين ناظروا أقوامهم ومن ادّعى الألوهيّة: النّمرود وفرعون، وقد كانت هذه الذّوات متراتبة، فذوات الرسل مُلحقة بالذّات الإلهيّة على اعتبار أنّها مُنشأة من طرف الذّات الإلهيّة التي اختارتهم لتحقيق البرنامج الاستعمالي الخاص بها.

نلاحظ ممّا سبق قوله أنّ الذّات الإلهيّة هي المنتجة لخطاب الرسل حين كلّفتهم بحمل رسالة الوحدانيّة فتميّزت بالفرديّة، أمّا ذوات الرسل فقد اختاروا لونا خطابيّا الأكثر نجوعا في مثل هذه المواقف الدعويّة وهو المناظرة التي تشتغل بنظام خاص أساسه التدرّج في إدراج الحجج فامتازوا "بالذّاتيّة"، ومنه نستنتج أنّ "الذّاتيّة" متعلّقة باللّغة نظاما، و"الفردية" متعلّقة باللّغة خطابا.

فمفاهيم الوحدانيّة هي النواة الأساس التي أمر الله تعالى رسله بتبليغها إلى أقوامهم، وأمر بها الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم تبليغها إلى العالمين، والذّات الإلهيّة تتّسم بالفرديّة لا بالذّاتيّة لأنّها بأمرها رسلها بالقيام بعمليّة التّبليغ بَنَتْ علاقة بين المتكلّم المستعمل والنّظام اللّغوي(المناظرة)، وكان هذا البناء آنيّا عن طريق الوحي المباشر، قال الله تعالى:

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ (البقرة، الآية 67)

﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ **(سورة الأعراف، الآية 59).**

﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)**﴾**(سورة طه)**

﴿**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)**﴾**(سورة الشّعراء)**

﴿**طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9)**﴾**(سورة طه)**

تظهر فردية الذّات الإلهيّة في هذه الآيات وفي غيرها من آيات القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى الآمر بالتّبليغ فرد صمد، في حين تتعدّد ذوات الرسل وتتغيّر أقوامهم وأماكنها وأزمنتها و"الفردية" في آيِ القرآن الكريم عامة والمناظرات خاصّة تتجسّد في البعد الإنجازي في قوله: (**"يَأْمُرُكُمْ"، "أَرْسَلْنا"، اذْهَبْ، وَإِذْ نَادَى، أَنِ ائْتِ، مَا أَنْزَلْنَا**)، والدالة على الأفعال الإنجازيّة الآنيّة المتعلّقة بأوامر الله تعالى أو أفعاله، فالأمر الإلهي بالتّبليغ خاصّ به دون غيره.

كما تدلّ الصيغ التّالية على سبيل المثال لا الحصر وهي (**مَا لَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**) على إقرار وحدانيّة الله تعالى لا شريك ولا مثيل له، واحد أحد، فرد صمد.

إنّ الأفعال الإنجازيّة الدالة على فردية الذات الإلهيّة في المناظرات تحيلنا على المقام الحقيقيّ الذي يؤسّس لوحدانيّة الله تعالى، فهذه الأفعال والصّفات خاصّة بالذّات الإلهيّة ممّا يجعلها ذاتا فرديّة تمثّل نفسها ولا يمكن أن تمثّل ذاتا جماعيّة.

2.1. تعدّد الذّات المنشَأة ووحدة مقصدها

يمثّل المتكلّم المنشَأ (الرسل) ذاتا اختارها الله تعالى لتنشر رسالته وتحقّق كلمة التّوحيد على الأرض على اعتبار أنّها خليفة الله تعالى على الأرض، ويكون هذا التّمثيل في بنائها لنظام لغويّ خاص يمكّنها من بلوغ هذا المقصد العظيم، فضلا عن انتهاج نهج معيّن للدعوة بما يتلاءم مع خطاب الذّات الإلهيّة، وأثناء عمليّة بناء هذا النّظام اللّغويّ الخاص بكلّ رسول تنعكس ذاته في بنية خطابه، وينعكس خطابه في كينونة ذوات الرسل فيتماهى الواحد في الآخر، وقد شكّل هذا التّماهي في المدوّنة التي نخصّها بالدّراسة ذاتا منشأة متعدّدة ونظاما لغويّا خاصّا تمثّل في "المناظرة".

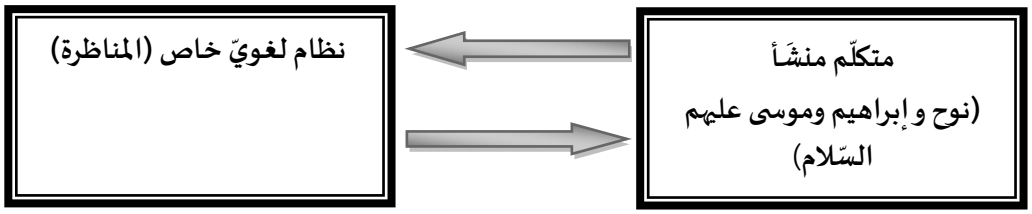

وقد ارتبطت ظاهرة "تعدّد الأصوات polyphonie" بنظريّة التلفّظ والحجاج عند ديكرو على وجه التّحديد، ليستلزم التلفّظ البوليفوني «متكلّمين متحدّثين ومستمعين مستقبلين، ومقصديّة، وزمانا ومكانا، وسياقا. ويعني هذا أنّ ثمّة حضورا وجوديّا وتلفظيّا للذّات المتكلّمة والذّات الأخرى، مادام هناك حوار وجواب وسؤال...ومن ثمّ، فالتلفّظ عمليّة تفاعليّة بين المتكلّم والسّامع، تتحقّق بطريقة صريحة أو ضمنيّة من جهة، أو بطريقة حرفيّة أو حواريّة من جهة أخرى»(حمداوي، 2015)، وهو الأمر الذي نلمسه في مناظرات نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام، فحضور الذّات المتناظرة تحَقّق فيها بجلاء ممّا جعل العمليّة التّناظريّة التّفاعليّة في أعلى مستوياتها وأوجّ تفاعلها.

أفرزت مناظرات نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام نوعين من المتكلّمين وهما: متكلّم خارجي ومتكلّم داخليّ؛ وقد اهتمّت اللّسانيّات بهذين العنصرين في خضمّ اهتمامها بالخطاب وبالظّواهر التلفّظيّة والظّواهر التّواصليّة، حيث ميّزت بين نوع من التّقابل بينهما وهي: المقابلة بين المتكلّم الخارجيّ والمتكلّم الداخليّ.

وتقوم «المقابلة بين متكلّم خارجيّ/ومتكلّم داخليّ بالنّسبة للخطاب على فرضيّة مفادها أنّ كلّ ذات متكلّمة يمكن أن يكون لها نوعان من الهويّة: هويّة اجتماعيّة وهويّة خطابيّة، تُحدِّد الهويّة الاجتماعيّة الذّات المتكلّمة بأنّها هي التي تأخذ الكلمة، وأنّ لها وضعا اجتماعيّا - باعتبارها ذاتا متواصلة – وأنّ لها قصدا تواصليّا؛ وتحدّد الهويّة الخطابيّة الذّات المتكلّمة بأنّها كائن لغويّ يُعبّر عنه من خلال استعماله إجراء التلفّظ» (شارودو و دومينيك، 2008، ص540)، فضلا عن ذلك، تحيل «المقابلة بين إنتاج وتقبّل على الأدوار التي يضطلع بها طرفا التّبادل اللّغوي أثناء وقوعه، فهما يتعاقبان ويتداولان في القيام بالدور الذي يُنتج عمل لغة موجّها إلى آخر، وبالدور الذي يتقبّل عمل لغة ويسعى إلى تأويله» (شارودو و دومينيك، 2008، ص 540) ومن هذا المنطلق فإنّ أهداف نظريّة " تعدّد الأصوات" تصبّ في تحقيق مقاصد حجاجيّة كغاية نهائيّة من عمليّة التلفّظ أو التّواصل.

يُحيلنا السّياق الخاص لمناظرات نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام إلى تعدّد الذّوات المنشئَة، بين ذوات أنشأها الله تعالى وأخرى أنشأتها ذوات الرسل، نمثّل لذلك بما يلي:

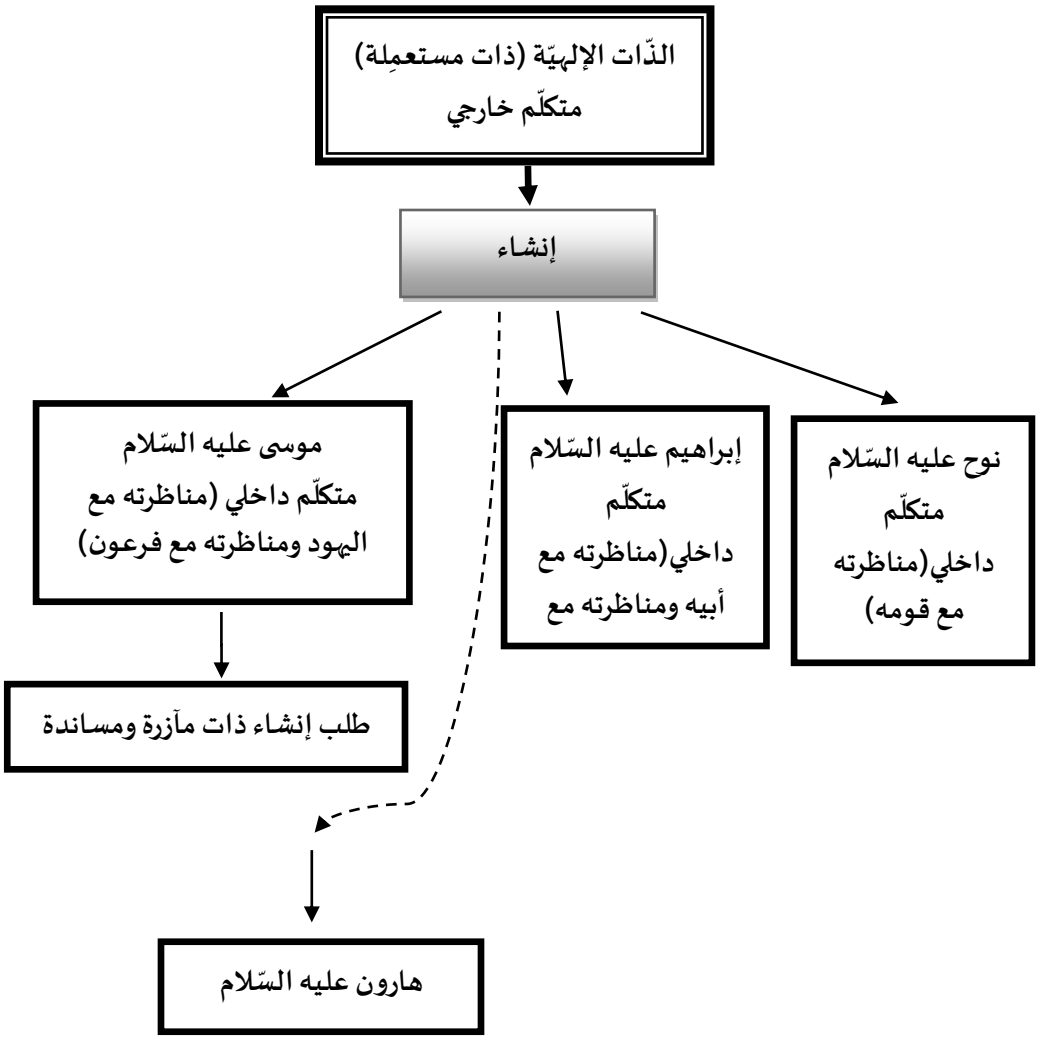

وقد حدّد "باتريك شارودو ودومينيك مانغنو" في معجمهما تحليل الخطاب" موقعا لكلّ ذات منشطرة في الخطاب، بين ذات خارجيّة عن الخطاب وذات داخليّة فيه (صنّف "باتريك شارودو- دومينيك مانغنو" مواقع الذّات المتكلّمة في الخطاب حين تكون خارجيّة عنه حسب موقعها: فحين تكون في موقع إنتاج تتكوّن من: باث، متكلّم، مؤلّف؛ وحين تكون في موقع تقبّل فتتكوّن من: متقبّل، مخاطب الموجّه إليه الخطاب، سامع)، غير أنّنا سنعتمد على بعض المصطلحات التي تفيدنا في دراسة النصّ القرآني دون غيرها وذلك لاعتبارات عديدة منها أنّ النصّ القرآني يمتاز بالقداسة، فمصدره هو الذّات الإلهيّة، ويمتاز كذلك بالنّموذجيّة، فهو قائم على نموذج لغويّ وفكريّ ثابت وراق، أمّا ما نسوقه من مناهج نقديّة معاصرة نبتغي بها مقاربة هذا النصّ المتفرّد فهي دنيويّة قائمة على سياقات وأفكار قاصرة وقيم دنيويّة، وهي سياقات بشريّة وجهد بشريّ يمتاز بالنّسبيّة، ومن أجل هذا الأمر فإنّ عمليّة مقاربة النصّ القرآني ليست بالأمر الهيّن وذلك نظرا لطبيعته المذكورة، ممّا يستوجب علينا السّعي للقراءة العلميّة غير النّاقضة لأطروحات القرآن الكريم فنختار ما نراه مناسبا ونُحجم عن غيره.

وبالموازاة مع انشطار الذّات المتكلّمة إلى ذات خارج الخطاب وذات داخل الخطاب، فإنّها تتّخذ موقعا يتباين بين موقع إنتاج أو موقع تقبّل وهو في المناظرات التي بين أيدينا كالتّالي:

ذات	موقع إنتاج	موقع تقبّل
خارج عن الخطاب	باث (الذّات الإلهيّة)	متقبّل (نوح وإبراهيم وموسى وهارون عليهم السّلام) الموجّه إليه الخطاب(نوح وموسى وهارون عليهم السّلام) مخاطب (الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنون) سامع (متلقّي القرآن في كلّ زمان ومكان)
داخل في الخطاب	متلفّظ (عارض) (نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام في المناظرات) (وذوات الكفر: متلفّظ معارض: قوم نوح ووالد إبراهيم والنّمرود واليهود وفرعون)	الموجّه إليه الخطاب(قوم نوح عليه السّلام وأب إبراهيم عليه السّلام، النّمرود، واليهود وفرعون) مرسل إليه (محمّد صلّى الله عليه وسلّم وهو حامل الرسالة إلى متلقّي المناظرات شفهيّا أو عن طريق قراءة القرآن)

فمن خلال هذا الجدول يتّضح لنا أنّ الباث الذي أوحى بالمناظرات هو الذّات الإلهيّة التي تكلّف رسلها بالتّبليغ لتوجيه عبادها وإبعادهم عن دائرة الشّرك، وهي ذات خارجيّة عن الخطاب تحتلّ **موقع إنتاج** بما زوّدت رسلها من آليات خاصّة مُمَثّلة في صفات خاصّة وأنظمة لغويّة راقيّة وناجعة لمواجهة جبابرة الأرض وكفّارها، لتحتل ذوات الرسل **موقع التقبّل** للمهمّة المُكلّف بها من الله تعالى، ويكونوا بعد ذلك ذوات داخليّة في الخطاب يتموضعون داخله ويوجّهون مقاصد خطابهم المنشأ والتي تجتمع في مقصد أساس رغم اختلاف من يوجّه إليه الخطاب من المشركين بالله وهو: إحقاق التّوحيد لله عزّ وجلّ وقطع دابر الرافضين للتّوحيد والمشركين.

2. تعدّد وجهات نظر الذّوات المتلفّظة

لنتمكّن من دراسة الحجاج وجب وصل الكلام بقائله وسياقه ومقاصده، فنجد أنفسنا في صميم نربط بين كلّ ذات بملفوظها وغايتها من التلفّظ وخصوصيّة وجهة نظرها، فضلا عن المتلقّي المشارك في الملفوظ ذاته، والذي تظهر أيضا ذاتيّته من خلال ردوده وإعلان **وجهة نظره** فيما يقال ومقارعته الحجّة بالحجّة في دورة تواصليّة تُكشف من علامات ذاتيّتها.

1.2. ذات التّبليغ مُحاجة

تؤسّس طريقة بناء المناظرة وِفق تصوّر العارض للقضيّة المتناظر حولها على تمثّل المقصد الذي يريد تحقيقه، فطريقة البناء تسهم مساهمة فعّالة في بناء الدلالة، وهي كيفيّة تتجلّى في مستوى البنية التصوّريّة والمفاهيم المتبنّاة، وليكون البناء ناجعا وجب تعاضد المضمون التصوّري للقضيّة والبناء المفترض لهذا المضمون، وبما أنّ التصوّر الذي جاء به رسل الله (نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام) يتأسّس على إرساء الوحدانيّة وكسر دابر الشّرك بالله فإنّ البناء الأمثل لهذا المضمون العظيم هو مقارعة الحجّة بالحجّة والممثّل في (التّناظر) لإحقاق الحقّ ودفع الباطل.

تُسند المناظرات التي بين أيدينا إلى أصوات ظاهرة وهي أصوات أولي العزم من الرسل وهم: (نوح وإبراهيم وموسى عليهم السّلام) والمبلّغة لسيّدنا محمّد عليه أزكى الصّلوات والسّلام، وقد تواتر ذكر قصّة نوح عليه السّلام ومناظرته مع قومه في سور

متعدّدة من القرآن الكريم منها: (الأعراف، هود، يونس، المؤمنون، الشّعراء، نوح)، ولمّا كان قومه يعبدون الأصنام أرسل إليهم الله نوحا عليه السّلام لينهاهم عن الشّرك بالله، قال الله تعالى﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25)**﴾(سورة هود).

دعا نوح عليه السّلام قومه بأسلوب ليّن ومقنع يتخلّله أدب جمّ ليعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيئا خوفا عليهم من هول عذاب يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿**لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ(59)**﴾(سورة الأعراف)، وهنا تظهر عاطفة الرسول الخائف على مآل قومه المشركين، وهي عاطفة صادقة لأنّه لا ينتظر منها منفعة خاصّة.

استدعى سيّدنا نوح عليه السّلام **العواطف** (الخوف على القوم) في دعوته بهدف إيصال الرسالة الربانيّة إلى قومه، ذلك أنّ دعوة المشركين إلى التّوحيد أو دعوة العصاة إلى الابتعاد عن المعصيّة يُنتج تحوّلا نفسيّا كبيرا لدى المتلقّي، فهو سيواجه اختبارا إلهيّا بين البقاء على ما هو عليه أو الانتقال إلى الوضع الجديد الذي يدعوه إليه الرسول كونه مبلّغ الرسالة الربّانيّة.

اعتمد نوح عليه السلام على التدرّج في الحجج بُغية إقناع القوم واستمالتهم بالتي هي أحسن، حيث أورد **حجّة استشهاد** في قول الله تعالى على لسانه: ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الذينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29)**﴾ **(سورة هود)** مُظهرا لهم صدق ونزاهة ما جاء به، فهو لا ينتظر منهم أجرا وإنّما أجره على الله، ثمّ أتى بحجّة مساندة لهذه الحجّة حين نفى إبعاد المؤمنين عنه ومنكرا عليهم طلبهم إذ قال:﴿**وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30)**﴾ (سورة هود) فقوله هذا يدخل ضمن **التّوجيه الحجاجي**، ففيه استمالة لعواطف القوم وإشارات لعقولهم، حيث أسهمت هذه الحجّة في **توسيع دلالة المحاجة من مخاطبة العقل فقط إلى مخاطبة العقول والعواطف معا.**

استدعى نوح عليه السّلام **الحجاج التّقويميّ** لتقويم اعوجاج تفكير قومه، ولاستدراجهم بالأدلّة والبراهين على صدق طرحه واعوجاج طرحهم وتفكيرهم، وفي هذه الحجج مجاراة لقومه هادفا استمالة قلوبهم إلى التّوحيد بتكثيف حضور الأفكار والمفاهيم الذّهنيّة الخادمة لأطروحة نوح عليه السّلام للوصول بهم إلى الاقتناع، فالمفاهيم المحسوسة أكثر إقناعا واستمالة من المفاهيم المجرّدة.

فنلاحظ ممّا سبق، أنّ نوحا عليه السّلام انتهج منهج الحجاج السّليم مع قومه المشركين والذي يتضمّن أهدافا ساميّة ومقاصد عاليّة تمثّلت في التّهذيب القوليّ والفعليّ والدعوة إلى الله بالتي هي أحسن.

غير أنّ قوم نوح عليه السّلام لم يقبلوا ما جاء به نبيّهم وأبانوا عن صوت مخالف لصوته هو الصّوت الذي يستهجن الإيمان ويدعو إلى البقاء على الشّرك بالله، قال الله تعالى على لسانهم ﴿**فَقَالَ الْمَلَأُ الذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27)**﴾ (سورة هود)، وقالوا أيضا﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32)**﴾ (سورة هود)، ممّا يوضّح وجهة نظر كلّ صوت: دعوة إلى التّوحيد/رفض التّوحيد.

أمّا مناظرتيْ إبراهيم عليه السّلام مع النّمرود وموسى عليه السّلام مع فرعون ففي هذا المقام لا يناظر رسولا الله أقوامهما وإنّما يناظران من ادّعى الألوهيّة، وهما النّمرود وفرعون اللّذان طغَيا وأفسدا في الأرض واستعبدا النّاس وفرضا عليهم عبادتهما دون الله بعدما ادّعيا الربوبيّة والألوهيّة؛ وقد بُني حجاج إبراهيم عليه السّلام في مناظرته مع النّمرود على أسس أربعة هي:

أ- المقدّمة: وفيها قدّم إبراهيم عليه السّلام عرضا واضحا عن أطروحته القائمة على تعريف الله تعالى بصفاته وأفعاله المخصوصة، واختار دليل "الإحياء والإماتة" حين قال ﴿**رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ (البقرة، الآية 258)، بكلّ هدوء وبكلّ ثقة لأنّ هذين الفعلين خارجان عن إرادة الإنسان وقدرته مهما كانت بنيته الجسميّة أو الذّهنيّة أو المعرفيّة أو المكانة الاجتماعيّة، كما هي خارجة

عن إرادة جميع المخلوقات مهما كان نوعها، وتعد هذه المقدّمة الصّوت المباشر الأوّل في المناظرة = صوت الدعوة إلى التّوحيد = وجهة نظر أولى.

ب- الانتقال إلى الحجّة الأقوى (التدرّج في الحجج): انتقل إبراهيم عليه السلام بعد معاندة النمرود وتشكيكه في الحجة الأولى إلى دليل آخر دون عنف بل بالبيّنة وبالتي هي أحسن وبحجّة داحضة لا مجال للتّمويه من خلالها ولا للتّشكيك فيها في قوله:

﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ اَلْمَغْرِبِ**﴾ (سورة البقرة، الآية 258).(صوت أوّل مباشر= وجهة نظر أولى)

وتقوم هذه الحجّة على الإتيان بدليل يقوم على المشاهدة والنّظر في قانون كونيّ يعاينه البشر كلّ يوم، وهو قانون لا يملك تغييره إلّا من وضع ناموس الكون، فإن كان النّمرود صادقا في ادّعاء الألوهيّة والربوبيّة فهو قادر على تغيير سنن خلق الكون وعناصره وخصوصا هذا القانون الكوني فيأتي بالشّمس من مغربها، وإن عجز عن الأمر فتقام عليه الحجّة ويُكذّب ادّعاؤه.

ت- الاقحام والانقطاع: نلاحظ أنّ الذّات المبلّغة كانت محاجّة في هذه المناظرة بشكل بارع حيث جمعت بين العلم والخُلق، إذ سايرت المعترض (الخصم) فيما يدّعيه في بداية المناظرة ولم تذهب معه في جدال عقيم، وانتقلت به من **القول إلى الفعل** وِفق القاعدة التي تربط المتكلّم بما يقول فسعت إلى دفع الخصم إلى **النّزوع نحو الفعل**، فالتّسليم برأي الخصم ومسايرته ألزم النّمرود بالردّ على الحجّة الموالية، فبمقتضى الألوهيّة التي يدّعيها وقدرته على الإحياء والإماتة يستلزم عليه الإتيان بالشّمس من المغرب، فإن استطاع فعل ذلك فيصّح ادّعاؤه، وإن عجز أفحمه إبراهيم عليه السّلام وأقام عليه الحجّة، وهذا ما حدث حيث عجز النّمرود على الإجابة ولم يجد ردا، قال الله تعالى ﴿**فَبُهِتَ الذي كَفَرَ**﴾ فهذا العجز اعتراف منه بعدم قدرته على الفعل، وفيه نقض لادّعائه الألوهيّة والربوبيّة.

يظهر في هذه الآية صوتان غير مباشرين يتماهى كلّ واحد منهما في الآخر، حيث يعلن عن الصّوت الأوّل الفعل المبني للمجهول(**فبُهِت**) والذي يدلّ على سارد المناظرة (الله تعالى) فيما يُعلن الفعل ذاته (فبُهت) والفعل الثّاني (كَفَرَ) عن صوت ثان غير مباشر وهو صوت الذّات المقابلة الرافضة للتّوحيد العاجزة عن ردّ حجّة إبراهيم عليه السّلام بسبب صفة الجحود الماكنة فيها.

أمّا مناظرة موسى عليه السّلام مع فرعون فقد جاءت للحديث عن مسألتيْن: أوّلهما التّوحيد وثانيهما وضع بني إسرائيل في دولة فرعون، وفرعون مثله مثل النّمرود ادّعى الألوهيّة وترد قصّتهما في سور عديدة غير أنّها وردت بشكل مفصّل في سورة طه وفي سورة الشّعراء، وتنبني حجج الذّات المناظرة على جملة من الأسس هي:

أ. السّؤال: فلمّا جاء موسى وهارون عليهما السّلام فرعون برسالة الله استفسرهما عن الإله الذي يعبدان، قال الله تعالى﴿**فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)**﴾ (سورة طه)، وقال الله تعالى في سورة الشّعراء ﴿**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16)**﴾، ففي هاته الآيات يتجلى صوت الرسل المباشر الذي يعرّف فرعون بالوضع الجديد والتحوّل الذي طرأ على موسى عليه السّلام بحمله للنبوّة ورسالة ربّ العالمين.

ليردّ فرعون:﴿**فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)**﴾ (سورة طه)، وفي هذا السّؤال يبرز صوتان: صوت مباشر يتضمّن فعلا انجازيّا تمثّل في مسايرة العارض (الخصم) في المناظرة، وهو ردّ السّؤال بالسّؤال تحريّا للجواب المقنع، وينبثق من رحم هذا السّؤال صوت ثان يتضمّن فعلا انجازيا غير مباشر تمثّل في تحميل سؤاله نوعا من الاستهزاء ردّا على ما أتيا به، وقاصدا به استدراج موسى عليه السّلام إلى الحجاج العقيم والسّفسطة التي لا تطلب الحقّ وإنّما تكرّس التّمويه.

ب. الجواب: يحمل الجواب حججا على وجود الله تعالى وكذب فرعون فيما ادّعاه، وهو الأسلوب نفسه الذي انتهجه إبراهيم عليه السّلام في مناظرته للنّمرود وهو بيان صفات الله تعالى وآثاره فيما خلق وفي قانون الكون الذي أنشاه، قال الله تعالى على لسان موسى عليه السّلام ردا على سؤال فرعون ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)**﴾ (سورة الشّعراء) فالله

هو خالق السماوات والأرض التي يعجز فرعون عن إنشاء مثلها، وفي هذا الجواب توجيه مباشر للقول إلى فرعون والجمهور الحاضر حتّى يكونوا شهودا لفرعون أو عليه، وهذا ما يؤكّده ضمير الجمع فـ« ضمير الجمع في **(كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)** مراد به جميع حاضري مجلس فرعون، أراد موسى تشريكهم في الدعوة تقصيّا لكمال الدعوة، وأنّ مؤاخذة القائل لا تقع إلّا بعد اتّضاح مراده من مقاله إذ لا يؤاخذ بالمجملات»(ابن عاشور، 1984، ص 128)، وفي ردّ موسى عليه السّلام نوع من الإثبات على وجود الله تعالى والتي تجلّت من خلال صفاته التي لا يملكها غيره، وفي ذلك تكريس لصوت مباشر أعلن عنه فعل الكلام الدال على الإثبات بأنّ الله تعالى هو ربّ المخلوقات منها السّماوات والأرض.

ت. تنويع الأدلّة العقليّة وعدم الوقوع في حيل الخصم: فبعد جواب موسى عليه السّلام عن ماهيّة ربّ العالمين، بأنّه ربّ السّماوات والأرض وما بينهما وهي موجودات كثيرة لا عدّ ولا حصر لها متنوّعة في الوجود، وهذه الموجودات أوجدها الله تعالى فلا يمكن أن يكون فرعون أوجدها أو أوجدت نفسها بنفسها، وهذا الجواب يحتاج إلى تفكّر وتدبّر في دلائل وحدانيّة الله في الكون التي تظهر من خلال آثاره وآياته ففي هذا الدليل إحالة ذهنيّة على مشهد عجيب تشاهده الأنظار كلّ يوم، ولأنّ الفهم يحتاج إلى تدبّر وتفكّر لإدراك سرّه ومعرفة مُنشئه، سارع فرعون إلى تغيير الوضع وتعطيل الدّليل والتفت إلى الحاضرين محاولا منه إضعاف حجّة موسى عليه السّلام إذ ﴿**قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ(25)**﴾(سورة الشّعراء)، ويحتمل هذا الالتفات أن يكون بهدف صرف الحاضرين عن التأمّل والتدبّر في جواب موسى عليه السّلام الذي يستوجب إدراك آيات الله ومن ثَمّ إدراك موجدها فتتمكّن الحجّة من إقناع عقولهم واستمالة قلوبهم.

وقد كان ردّ موسى عليه السّلام فوريا لهذا الالتفات بأن أدرج حجّة ثانيّة تحصر الموجودات وتخصّصها فيما ألِف قوم فرعون رؤيته وسماعه قال الله تعالى على لسان موسى عليه السّلام: ﴿**قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)**﴾ (سورة الشّعراء) ففي الجواب استدلال قويّ على خالق النّفس البشريّة، ففيه إحالة ذهنيّة على حقيقة عجيبة وهي من الذي خلق أنفسنا ومن يسيّرها، فلا فرعون يستطيع أن يدّعي خلق الحاضرين أو خلق الذين قبلهم، ولا حاشيّته تصدّق بأنّ فرعون هو من خلقهم وخلق آباءهم الأوّلين.

ث. الفلج (الإفحام أو الانقطاع في المناظرة): يدلّ مصطلح "الفلج" على الفوز والغلبة في المناظرة، فعند حدوث عمليّة "الانقطاع" وهي انقطاع حجج أحد الطرفين في المناظرة، فإنّ هذا يعني فوز الطّرف الآخر وهي أمارة انتهائها، «وقطع الخصم في المحاورة غلبة»(الزمخشري، 1992، ص 514)، وقد ورد في كتاب الإمتاع والمؤانسة «كان أحسن النّاس لمن خطّ بالقلم، أو بلغ باللّسان أو فلج في المناظرة»(التوحيدي، دت، ص 64) لأنّ انقطاع حجج الخصم تدلّ على كفاءة المناظر وقدرته الكبيرة على إيراد أقوى الحجج.

ويعطي السّلف من خلال هذا القول أهميّة بالغة وشأنا كبيرا للطرف الغالب في المناظرة سواء أكان سائلا أم معلّلا، لأنّ الهدف الأسمى لعمليّة التّناظر يتعدّى الأشخاص إلى القيمة المثلى في الحياة وهي: تحقيق الحقّ ودفع الباطل.

ويظهر "الفلج" في مناظرة موسى عليه السّلام مع فرعون في عجز فرعون عن نقض حجج موسى عليه السّلام فرغم التّشغيب الذي أحدثه لم يتمكّن من بلوغ مقصده، غير أنّ انقطاع فرعون عن التحاجج في هذه المناظرة لم يكن كانقطاع النّمرود الذي أفحمه إبراهيم عليه السّلام فصمت، فإنّ فرعون بمكابرته لم يرد إظهار عجزه أمام حاشيّته فتوسّل بحجج مغالطة لإخفاء عجزه وأخذ المناظرة منحى آخر لا يبتغي إحقاق الحقّ وإنّما يبتغي الفوز بأيّ وسيلة ولو ظهر الحقّ على يدّ معارضه، ففضلا عن التفاته إلى الحاضرين ومحاولة تأليبهم عليه اتّهم سيّدنا موسى عليه السّلام بالسّحر قاصدا التهكّم والسّخرية من حججه وزعزعة اليقين فيها.

2.2. الذّات الر افضة للتّوحيد مُساجلة

اعتمدت ذوات الرسل على الحجاج السّليم لتبليغ رسالة الله تعالى ودحض الكفر غير أنّ الذّوات الرافضة للتّوحيد انتهجت طرقا مغايرة لطُرق الرسل في إثبات الحقّ، ونرصد نشاطا سِجاليّا متسلسلا لأقوام الرسل من نوح مرورا بإبراهيم، ووصولا لموسى عليهم السّلام.

تبرز ذوات الأقوام في المناظرات ذواتا مُساجلة ومُجادلة لأمر الرّسل الذين أرسلهم الله تعالى إليهم لهدايتهم إلى الطريق السّويّ وإبعادهم عن الشّرك والكفر وطريق السّوء، ولقد صوّر القرآن الكريم سجال الأقوام في الآيات التّاليّة:

قال الله تعالى ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27)﴾ (سورة هود)

استهلّ نوح عليه السّلام دعوة قومه إلى التّوحيد بانتهاج سبيل الرفق والدعوة بالحسنى، وبفعل دال على "**عاطفة الرحمة**" التي امتاز بها نبيّ الله نوح عليه السّلام وهو الفعل "**أخاف**"، وهذا الفعل مُدرج ضمن أفعال العواطف وأفعال الذّاتيّة عند الباحثة أوروكيوني، ذلك أنّه يدلّ على تقويم عاطفيّ وأخلاقيّ يراوح بين الإيجاب تارة والسّلب تارة أخرى؛ وفي هذا المقام من قول "نوح عليه السّلام" ينزع منزعا عاطفيّا أخلاقيّا حين يحمل نبيّ الله همّ القوم ويخشى عليهم عذاب يوم القيامة الذي وصفه بالأليم، والأليم صفة ذاتيّة تؤدّي حكما قبيحا حول هذا اليوم المُنتظر، فالرحمة هي ما فضّل الله بها نوحا على سائر أفراد قومه وهي الصّفة التي يتعامل بها مع قومه.

ولتجنّب هذا اليوم مارس "نوح عليه السّلام" فعلا إقناعيّا ذا بعد عاطفيّ هدفه إثارة نوازع وعواطف قومه بتحريك ذواتهم ودفعهم إلى التّفكير في حقيقة أفعالهم وحقيقة وجود الله تعالى الذي أعدّ يوما أليما للمشركين، ومنه التخلّي عن هوى أنفسهم الذي يدعوهم إلى الكفر والعصيان. غير أنّ قوم "نوح عليه السّلام" اتّهموه بالكذب، فهو حسبهم بشر مثلهم وليس ملكا أو ما شابه ذلك، ولم يتّبعه أشراف القوم بل اتّبعه أراذل القوم وفقراؤهم وهم أقلّ شأنا وفضلا حسب اعتقادهم.

يكرّس هذا الجدال الذي أبداه قوم "نوح عليه السّلام" مبدأ السّجال البعيد عن الحقّ، وتتبّع الطرق المؤسّسة له، حيث تُعاند وتتهمّ نبيّ الله وتستخدم أفعالا تجسّد تقويما سلبيّا مضادا لتقويمه الإيجابي الذي جسّده الفعل العاطفي أو الذّاتي "أخاف" ألا وهو الفعل "**رأى**" الذي كُرّر ثلاث مرّات، حيث «جزموا بتكذيبه، فقدّموا لذلك مقدّمات استخلصوا منها تكذيبه، وتلك مقدّمات باطلة أقاموها على ما شاع بينهم من المغالطات الباطلة التي روّجها الإلف والعادة، فذهبوا يتطلّبون الكمال من أعراض تُعرض للنّاس بالصّدفة من سعة مال أو قوّة اتّباع أو عزّة قبيلة...وربّما تطلّبوا الكمال في أجناس غير مألوفة كالجنّ...وهذه أسباب ملائمة لأحوال أهل الضّلالة إذ **لا عناية لهم بالجانب النّفساني من الهيكل الإنساني**»(بن عاشور ا.، 1984، ص46)، ولمّا كانت الدراسات التّداوليّة **تربط المعنى بالسّياق** فإنّ الدّراسات التّداوليّة المعرفيّة تركّز على **فهم المعنى في السّياق**، وهذا ما يتجلّى لنا من خلال سياق الردّ الذي أتى به قوم "نوح عليه السّلام" فالذّات المقابلة الرافضة للتّوحيد المتكلّمة «تريد أن تكون ذاتا نديّة للرّسول...، بل ذاتا نديّة لله تعالى، حيث توصف الأشياء والعالم بصفاتها هي وفق مفهومها هي، وهي تريد أن تزحزح كلام الله ورسوله ليحلّ محلّه كلامها هي»(هديم، 2021، ص 67)، فيؤدّي الفعل "رأى" حسب "ابن عاشور" في هذا السّياق معنى "أدرك" وذلك بإدراك قوم نوح عليه السّلام "**لموضوع الفضل**" بين الأشخاص حسب مكانتهم أو قوّتهم الجسديّة أو جمال أشكالهم أو شرف قبيلتهم، وهذا ما يُسمّى في مجلس التّناظر **بالمكابرة** وهي «المنازعة لا لإظهار الصّواب، ولا لإظهار الخصم، ولكن لإظهار الفضل»(الميداني، 1975، ص 454) حيث يحاول المكابر استعمال وسائل غير مفهومة في المناظرة كعدم التسليم بالبديهيّات، أو كمنع الدليل جملة واحدة، أو كنقض دليل

المعلّل دون الإتيان بشاهد يبرر هذا النقض، كما قد يدفع المكابر الحق ويعمل جاهدا على عدم إظهاره إن حدث وأخطأ ثم انكشف خطؤه لكنّه يظلّ يكابر من أجل عدم الاعتراف والعدول عن الخطأ الذي وقع فيه، فـ « المكابرة هي مدافعة الحقّ بعد العلم به»(العياشي، 2012، ص 49) ورفضه بعد إدراكه.

وبهذا **القياس الفاسد** الذي اعتمد عليه القوم لتقييم دعوة "نوح عليه السّلام" والذي يحمل سمات **إدراكيّة ذاتيّة تقيس الصّواب والخطأ حسب اعتقادهم الفاسد** اتّهموا الرّسول "نوح عليه السّلام" بالكذب وقيّموا دعوته تقييما سلبيّا لا مكان للجانب النّفسيّ فيه، وإنّما طغى عليه الجانب المادي المتمثّل في سجالهم بالقوّة والتّهديد، فكانت هذه الوسيلة من وسائل الجدال والمساجلة هي المهيمنة على المشهد المناظري من جانب الأقوام هدفا منهم لإبعاد الحقّ والانتصار للجحود والباطل.

يستمر الجدال الباطل من طرف قوم "نوح عليه السّلام"، **قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32)﴾**، فكانت «المجادلة الأخيرة التي استفزّت امتعاضهم من قوارع جدله حتّى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأن المُبطل إذا دمغته الحجّة، ولذلك أرادوا طيّ بساط الجدال وإفحامه بأن طلبوا تعجيل العذاب الذي توعّدهم به، كقوله آنفا ﴿**قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32)**﴾»(بن عاشور ا.، 1984، ص 60)، نلاحظ في هذه الآية الكريمة استمرار قوم "نوح عليه السّلام" في السّجال والمجادلة الباطلة وذلك حين نفوا صفة الصّدق عن رسول الله "نوح"، ومقتضى كلامهم هو الكذب الذي أصرّوا على إلصاقه بنبيّ الله، فهم «جازمون بتعذّر أن يأتيهم بما وعدهم لأنّهم يحسبونه كاذبا»(العياشي، 2012، ص 61) وقد كرّس هذا السّجال "**التّباعد**" بين "نوح عليه السّلام" وقومه، خاصّة وأنّهم عدّوا نصحه جدالا مذموما يحمل شرّا فتحدّوه بإظهار العذاب الذي توعّدهم به وتعجيله.

أمّا في مناظرة "**إبراهيم عليه السّلام مع أبيه**" فقد كانت بدايتها نهي رسول الله إبراهيم أباه عن عبادة الشّيطان حين قال: ﴿**يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**﴾ ففيه تقرير على أنّه إن كان عابدا للأصنام فإنّه عابد للشّيطان، ومن عبد الشّيطان فهو عاص للرحمان.

تُبين هذه الآيات الكريمة عن تعدّد الأصوات حسب مفهوم **ديكرو** لها حيث تتمثّل في: الذّات المتكلمة: الله: النص القرآني ككل كلام الله الموجه إلى الناس كافة في كل زمان ومكان + المتلفظ الأوّل إبراهيم عليه السلام + المتلفظ الثّاني والد إبراهيم عليه السلام من خلال أداة النداء التي توحي بوجود حوار بينهما ﴿**يَا أَبَتِ**﴾.

يتدرّج "إبراهيم عليه السلام" في خطابه من نهي ليّن إلى خطاب تخويف ضمنيّ من سوء العاقبة التي تلحق من يتّبع الشّيطان دون الله حين قال﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾، فكلمة "يا أبتِ" المصغّرة والمكرّرة تحمل نوعا خاصّا من **التقرّب** وهو تقرّب الابن من أبيه، وفيه نوع من الاستعطاف وهي علامة على التقارب بين الطرفيْن، فضلا عن أنّ للفعل "أخاف" حمولة وشحنة عاطفيّة حيث أُدرج ضمن الأفعال الذّاتيّة التي تؤدّي دورا حجاجيّا خاصّا وهي في هذا المقام تحمل مقصد التّخويف من عاقبة الشّرك والكفر بالله.

لكن مع هذا الأسلوب الدعوي المتّسم باللّين تارة وبالتّخويف تارة أخرى الصّادر عن ابن تّجاه أبيه، إلّا أنّه أجابه بجواب من لم يع ما قيل له، ومن لم يحدث تأثيرا في نفسه ممّا سمع، وهو جواب اعتراضيّ يحمل الاستنكار حيث قال ﴿**أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾؛ يحيل هذا الجواب الذي أدلى به آزر إلى بداية الاختلاف بين الأب وابنه الذي دعاه بلغة ليّنة تليق بمقام الأب أمام ابنه، ويترتّب عن هذا الاختلاف اعتزال كلّ واحد منهما للآخر، وهذا ما كُرّس في الفعل التّهديديّ الذي قام به آزر تّجاه ابنه معتمدا في ذلك على نوع من السّلطة التي يملكها على حسب اعتقاده حين قال ﴿**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾، ففي خطابه عنف تّجاه ابنه الذي لم يفرض على أبيه دعواه، أمّا حجاج آزر القائم على التّهديد والتّخويف وهو ما يُطلق عليه في البلاغة الجديدة "**الحجاج**

بالقوّة" كما حدث مع بقيّة رسل الله عليهم السّلام، وهذا النّوع من الحجاج مذموم شرعا لأنّ الأصل فيه هو إحقاق الحقّ ودفع الباطل بأسلوب ليّن لا تهديد فيه ولا عنف.

ويتجلّى الهدف من هذا النوع من الحجاج في إرغام الطّرف الآخر على الاعتراف بأنّ خصمه على حقّ ترويعا وترهيبا، غير أنّ ردّ إبراهيم عليه السّلام كان ثابتا وليّنا إذ قال ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾ (سورة مريم، الآية 48-47)؛ وهذا النّوع من الحجاج الذي يستخدم القوّة والتّهديد لا «يُعتبر أسلوبا حجاجيّا في الأصل، لأنّه لا يؤدّي إلى اقتناع شخصيّ عند المتلقّي»(صمود، دت، ص 28)، فهو خطاب عُنف وسِجال من طرف المتعصّبين لآرائهم الباطلة.

كما يأتي السّجال في مناظرة موسى عليه السّلام مع فرعون ببعض المسالك التي لا تصحّ في الحجاج المحمود المُفضي إلى إظهار الحقّ ودفع الباطل، ومن أهمّها استعمال فرعون **لمظاهر سلطته**، فالمقام الذي يحتلّه بصفته ملكا على قومه خوّله إلى جمع السّحرة من جميع أنحاء مصر وتسخير إمكانيّاتهم لمناظرة موسى وهارون عليهما السّلام، قال الله تعالى على لسان فرعون ﴿**فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)**﴾ (سورة الشّعراء)، ثمّ هدّد فرعون بموجب سلطته السّحرة بتقطيع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جذوع النّخل لمّا آمنوا بالله تعالى، قال الله تعالى على لسان فرعون﴿**قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (71)**﴾ (سورة الشّعراء)، وهذا التّسخير للسّلطة الذي مارسه فرعون يُعد أسلوبا من أساليب السّجال المنتهج من طرف الذّات الرافضة للتّوحيد.

3.2.الذّات من خلال الأفعال المتضمّنة في القول

تقوم دعوة الرّسل عليهم السّلام على الموضوعيّة في عرض الحجج الداعيّة إلى الله تعالى ضمن المناظرات التي اختاروها منهجا لإحقاق الحقّ ودفع الباطل، غير أنّ كلّ رسول باعتباره متكلّما قد استعان في بعض الفترات «بالمؤشّرات التي تدلّ عليه كشخص أو كذات تكون منعدمة لهذا يلجأ إلى أساليب بديلة للتّعبير عن هذه الذّات، وهو ما ذهب إليه ديكرو عند حديثه عن الذّاتيّة، في نظريّته "تعدّد الأصوات"، حيث يرى أنّه بإمكان المتلفّظ أن يعبّر عن ذاته بواسطة إلقاء القول، وهو مصطلح استعمله كبديل لمصطلح الضّمائر عند بنفنست، الذي يرى أنّ الشّخص الأوّل هو الضّمير الذّاتي بامتياز، حيث جاء ديكرو ليعارضه في هذه النّقطة ويبرز بواسطة نظريّته هذه أنّ الذّاتيّة في الخطاب يمكن أن تظهر بأساليب أخرى، غير ضمير المتكلّم» (تابتي، 2016-2017، ص 55)، حيث نرصد حضور «كلّ من القائل والمتلفّظ بواسطة بعض الأفعال المتضمّنة في القول»(Ducrot Oswald, 1980, PP 225-231) وهي أساليب تدخل ضمن أفعال الكلام التي تتحمّل مسؤوليّة القول نيابة عن المتكلّم، فقد هيمنت **أفعال النّفي** على مناظرة نوح عليه السّلام مع قومه، وتمثّلت في: نفي الفضل عن نبيّ الله نوح عليه السّلام من طرف القوم، قال الله تعالى على لسان القوم ﴿**فَقَالَ الْمَلَأُ الذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27)**﴾ (سورة هود)، وفي المقابل نفى نوح عليه السّلام معتقد قومه في أنّ الرسول لا يكون بشرا ويردّ على صوت الكفر الذي يريد نفي الرسالة عليه، قال الله تعالى على لسان نوح عليه السّلام ﴿**وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)**﴾ (سورة هود)، ليظهر صوت مخالف لصوت الكفر والذي ينفي وجود صفات خارقة ومميّزة في رسل الله وإنّما هم بشر اصطفاهم ربّ العالمين، لتستمرّ بعدها أفعال الكلام في الانسياب بين سطور المناظرة فتتنوّع من النّفي إلى الاستفهام الإنكاري المهدّد لوجه نوح عليه السّلام، ليظهر

من خلاله صوت الذّات الجماعيّة الرافضة لدعوة نوح عليه السّلام والهادفة إلى قطع التّناظر في وجوب النّزوع نحو عبادة الله تعالى، قال الله تعالى على لسان القوم ﴿**قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32)**﴾ (سورة هود).

وإن كان الاستفهام قد خرج عن غرضه الحقيقي في مناظرة نوح عليه السّلام مع قومه إلى غرض الإنكار، فإنّه في مناظرة إبراهيم عليه السّلام مع أبيه يعزّز هذا الغرض بمزاوجته مع نوع آخر من الحجاج وهو الحجاج بالقوّة لدى آزر، واستفهام مصحوب بشحنة من التّهذيب والتي تتضمّنها العلاقة الخاصّة: ابن/أب، فكان لهذا الفعل الكلامي غير المباشر الذي اعتمد عليه إبراهيم عليه السّلام قصدٌ يندرج ضمن هذه العلاقة الأسريّة الخاصّة، وهو التّخفيف من وطأة التّهديد الذي سيطال أباه جرّاء دعوته إلى ترك معتقده (الشّرك بالله) وتغييره إلى معتقد التّوحيد والإيمان بالله تعالى، قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السّلام ﴿**لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)**﴾(سورة مريم)؛

في حين يخرج الاستفهام بالقوّة لدى آزر عن غرضه الأصلي إلى تهديد ماء وجه إبراهيم عليه السّلام بنوع من الحدّة الأمر الذي يُظهر صوتا لمتكلّم غاضب ورافض للدعوة، وغير مراع للعلاقة الأسريّة التي تجمعه بالطّرف الآخر، قال الله تعالى على لسان آزر﴿**أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)**﴾ (سورة مريم).

وبعد هذا الرفض والعنف، استمر إبراهيم عليه السّلام في الدعوة بالّلين إذ قال لأبيه ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا(48)**﴾ (سورة مريم)، فيعلن ضميرا المخاطب "الكاف" و"كم" في: عليك، لك، أعتزلكم، عن وجود صوت واحد (إبراهيم عليه السّلام=المتلفّظ)، أمّا ضمير الغائب (الهاء) فيعود على صوت غير ظاهر وهو صوت الله تعالى، والذي تدلّ عليه بعض الكلمات في هذه الآيات وهي: ربّي، الله، ويعدّ الله تعالى في هذا المقام: المخاطَب الأوّل، في حين يعدّ آزر المعني بضمير الكاف في (عليك، لك) الصّوت المُخاطَب الثّاني، أمّا الضّمير "كم" في كلمة "أعتزلكم" فيُظهر صوتا مخاطَبا ثالثا وهم (القوم).

ويأتي فعل الكلام المتمثّل في الأمر في مناظرة إبراهيم عليه السّلام مع النّمرود مهدّدة لماء الوجه الذّات المقابلة الرافضة للتّوحيد التي تحدّت مبلّغ رسالة الله تعالى ونسبت فعليْ الإحياء والإماتة لها، قال الله تعالى على لسان خليله عليه السّلام ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ...(258)**﴾ (سورة البقرة)، ففعل الأمر (**فَأْتِ**) فعل أمر مباشر يعلن عن الأنا المتكلّمة، غير أنّ هذا الموضع يتماهى صوت المتكلّم (رسول الله إبراهيم) في صوت المتكلَّم عنه(الله تعالى) إذ وجّه الأمر للنّمرود طالبا منه إنجاز شيء مستحيل يُظهر عجز البشر، فانمحى ضمير (أنا) الذي أعلن عنه النّمرود في بداية المناظرة حين قال ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ في جملة ﴿**فَبُهِتَ الذي كَفَرَ**﴾ ليختفي صوت التكبّر والجحود والتحدّي الذي ظهر عند الذّات المقابلة الرافضة للتّوحيد الممثّلة في النّمرود، ويظهر في الجانب المقابل فيض من المعاني وصوت الحقّ الذي مثّله إبراهيم عليه السّلام بقليل اللّفظ على اعتبار أنّ المناظرة مختصرة وقد أُجمِلت في آية واحدة فقط من سورة البقرة.

إنّ أفعال الكلام التي أعلنت عنها المناظرات القرآنيّة قيد الدراسة، من نفي واستفهام وأمر تدلّ في الأصل على «حضور ذات تتكلّم، وتوجّه وتحثّ المخاطب على فعل أمور وترك أمور أخرى، حتّى لو لم تُشر مباشرة إلى ذاتيّتها عن طريق ضمير المتكلّم، لأنّ كيان هذه الذّات مصنوع ومكوّن داخل الجملة»(تابتي، 2016-2017، ص 57)، وهي القول المنطوق الذي بلغنا عن طريق المناظرات، وفي مقابل ذلك يظهر صوت لا ينتمي إلى بنية المناظرات اللّغويّة وإنّما يتواجد خارج النصّ يُعلن عنه السّياق وهو متلقّي المناظرات، و«هذه التتّمة تعتبر من الأقوال المضمرة Les sous-entendusالتي تعتبر النّمط الثّاني من متضمّنات القول، حيث ترتبط بوضعيّة الخطاب ومقامه»(تابتي، 2016-2017، ص 75)، ولأنّ القرآن الكريم نزل على سيّد المرسلين محمّد عليه الصّلاة والسّلام والمناظرات قُصّت

عليه للتّسليّة والتّثبيت، فإنّه يعدّ الصّوت المضمر الأوّل، ويعدّ المؤمنون المتلقّون للقرآن الكريم على مرّ العصور الصّوت المضمر الثّاني.

3.الاستنتاج

نستخلص من خلال بحثنا جملة من النتائج نذكر أهمّها:

– يتجسّد النّظام الدّاخلي للغة المناظرات التي بين أيدينا من خلال تمثُّل ذوات الرسل في النّظام اللّغوي لكل مناظرة حيث تُسهم في بنائه وإنشائه باعتباره ممثّلا لبنيتها الذّهنيّة التي لا يمكن أن توجد بدونها أو بمعزل عنها، فتصير الذّات (ذوات الرسل) مكوّنا من مكوّنات هذا النّظام حيث تبني هذا النّظام من الداخل وتقوّمه، فيتحقّق بذلك بناء الذّات المناظرة في حدّ ذاتها فلا وجود للذّات إلّا باللّغة ولا وجود للّغة إلّا بالذّات.

– انقسمت الأصوات في المناظرات إلى أصوات ظاهرة وأخرى متضمّنة في القول كرّست تعدّد أصوات الذّوات وتعدّد مقاصدها، وعملت ضمائر الشّخص الدّالة على الذّاتيّة الظّاهرة أحيانا والمضمرة بين تلافيف القول أحيانا أخرى على الإفصاح عنها وتنويعها.

– يُبين تعدّد الأصوات في المناظرات القرآنيّة عن عالمين: عالم الإمكان وعالم الموجودات فصوت عالم الإمكان ممثّل في الله تعالى الذي رافق رسله في دعوتهم أقوامهم الكافرة إلى التّوحيد وعالم الموجودات وهم الأقوام الذي حادوا عن طريق الله تعالى، فأرسل الله الرسل لتكون واسطة بينه وبينهم فتدعوهم إلى الإيمان بالواحد الأحد، ممّا يُظهر لنا أربعة مستويات لتجلّي الأصوات وهي: صوت الذّات الإلهيّة، وصوت الرسل، وصوت الكافرين، وصوت غير خطابي خارج النصّ وهو صوت المتلقّي (الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين على مرّ العصور)، وهذا التعدّد في مستويات الأصوات في المناظرات القرآنيّة يُنتج بالضّرورة تعدّد المقاصد، غير أنّ هذا التعدّد في المقاصد يتباين أحيانا لغة ودلالة ومنهجا وحججا كمقاصد الكفار ومقاصد الرسل، ويقترب أحيانا أخرى، ذلك أنّ الرسول هو مبلّغ الرسالة الربانيّة ممّا يجعل قصده من قصد الله وإرادته من إرادة الله، وصوته هو انبعاث وصدى لصوت الله.

– انشطر المتكلّم في المناظرة القرآنيّة بين محاج ومساجل، وتمثّلت الذوات المحاجة في ذوات الرسل الذين ساقوا حججا وبراهين تكرّس فكرة وحدانيّة الله تعالى، فتوخّى الرسل اللّين والرفق في مخاطبة الخصم ومناظرته، فليس الغرض من المناظرات القرآنيّة غلبة الخصم والتفوّق عليه وإنّما الغرض منها هو إرشاد المناظر والمتلقّي وهدايته إلى معرفة الله تعالى فنحن لا نتكلّم إلّا من خلال الآخر، وذوات الرسل اضطلعوا بهذه المهمّة بسبب وجود الطرف الآخر الكافر بالله تعالى، ومن أجل ذلك، عمد رسل الله إلى التّنويع بين الأدلة الموصلة إلى هدفهم المنشود وهو الدفاع عن العقيدة ودحض الكفر، فالذّات المحاجة تدافع بالحجج الواضحة وبالحجج المتضمّنة في القول عن الحقائق وتنتصر بها للقيم التي تحقّق منفعة الفرد والمجتمع وصلاحهم، عن طريق تحريك النّفوس وإقناع العقول بما تقرّه من دلائل عن وحدانيّة الله تعالى، كما تعدُّ هذه الأساسيّات من بديهيّات العقول وهذا ما حاججت له ذوات الرسل؛ غير أنّ الذّات المساجلة على اختلاف موقعها انتهجت منهجا مخالفا لذوات الرسل حين اعتمدت في ردودها على الاستهزاء والتّجريح والاتّهام بالجنون والمغالطة والتّشغيب وغيرها من أساليب السفسطة والتّمويه المُخالفة للجدل القرآني المحمود ما جعلها تدخل في دائرة الجدل المذموم الذي يتطلّع للقضاء على معتقد ذوات الرسل ونقض أطروحَتِهم (التّوحيد).

– حرص رسل الله تعالى على انتهاج الحجاج السّليم ممثّلين بذلك (الآنا المحاجة) عبر لغة رصينة وحجج متراصّة ومقصد نبيل وعظيم، في حين انتهج الآخر صفة السّجاليّة المنكرة لما جاء به الرسل، فتكوّنت بؤرة صراع بين الحجاج والسّجال في الخطاب نفسه حيث تناسل السّجال من خطاب الآخر المخالف له والمتولّد عنه، موهما نفسه بأنّه قادر على تجاوز خطاب الرسل والفوز بالمناظرات بانتهاج العنف والقوّة والمغالطة والتّمويه وغيرها، لتكون الغلبة في نهاية المطاف للحجاج السّليم أمام جحافل الحجاج المغالطي.

المراجع

أبو حيان التوحيدي. (د ت). *الإمتاع والمؤانسة*. أحمد أمين وأحمد الزين(مترجمان). بيروت: دار مكتبة الحياة.

ادراوي العياشي. (2012). *الحوار الاختلافي أو مسلك التناظر الكلامي، مساهمة في إعادة بناء أصول التخاطب*. المغرب : إفريقيا الشرق.

باتريك شارودو، ومانغنو دومينيك. (2008). *معجم تحليل الخطاب*. عبد القادر المهيري و صمود حمّادي (مترجمان). تونس: دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة.

باديس، نرجس. (2018). *تجذّر الذّاتيّة في النّظام اللّغوي*. تونس: الدّار التّونسيّة للكتاب.

بن عاشور، الطّاهر. (1984). *تفسير التّحرير والتّنوير* (ج 12). تونس: الدار التونسية للنشر.

_____ *تفسير التّحرير والتّنوير*(ج 24). تونس: الدار التونسية للنشر.

_____. *تفسير التّحرير والتّنوير* (ج 16). تونس: الدار التونسية للنشر.

_____. *تفسير التّحرير والتّنوير*(ج17). تونس: الدّار التونسيّة للنّشر.

تابتي، يمينة. (2016-2017). *المتكلّم في حكم ابن عطاء الله السكندري –دراسة تداوليّة- أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه*. الجزائر: جامعة مولود معمري تيزي وزو.

حمّادي صمود. (د ت). *الحجاج في المقام المدرسي: ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثّانيّة في التّعليم الأساسي*. تونس: كليّة الآداب.

حمداوي .(2015) .*أنواع المقاربات البوليفونية و في تحليل الملفوظات والنّصوص والخطابات* .الأولولة الأدبية واللغوية

Récupéré sur: https://www.alukah.net/literature_language/0/93239/%D8%A3%D9%86%D9%88%D8%A7%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%B1%D8%A8%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%81%D9%88%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%AA%D8%AD%D9%84%D9%8A%D9%84-%D8%A7%

الزمخشري، جار الله. (1992). *أساس البلاغة*. لبنان: دار صادر.

الميداني، محمد حسن حنبكة. (1975). *ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة*. سوريا: دار القلم.

هديم، عائشة. (2021). *مقالات في تداولية الخطاب القرآني و علومه*. عمربلخير (مقدم) الأردن: ركاز للنشر والتوزيع.

Ducrot, O. (1980). *Les échelles argumentatives.* Paris: Editions de Minuit.